

# الإسلام أبكما أو في فنون السماع: قراءة في خطاب التحريم ومنزع التضييق

الحاج أوحمنه دواق  
باحث جزائري



قسم الدراسات الدينية



من علة لهذا الحال، إلا التواطؤ الأبدى بين سلطان الأرواح؛ أي الفقهاء، وسلطان الأبدان؛ أي الفراعين القوارين، على إشاعة رأي على أنه الحق، وإخفاء آخر بوصفه الباطل، أو هو عين الباطل.

## إبطال السماع/ اللهو، وتموقعه خارج بنية الدين:

الدين منظومة عامة، اشتملت في وعي السابقين على كل ممكن مورس أو سيمارس، خاصة إذا تحلى بإظهار الطقوس العبادية في صور فردية أو جماعية، وإذا كان مسار التجربة الحضارية الإسلامية، حتى غلب عليها الفهم النصوي، وارتفع شأن الفقهاء الاختزاليين، على كبار المفكرين، فتولدت المفارقة في الفهم، والفصام في الممارسة، وشرع هؤلاء في شطر الحياة بين مراتب الأحكام، مع ميل ظاهر إلى الأجزاء الدنيا، مع إغفال للمستويات الوسطى والعلوية، كما سيأتي بيانه، وضيقوا في فسحة الدين الواسعة، وأعطوا خطام التفسير لمستويات وعي له شروطه وظروفه، ولو عرفت البادية، السياق التاريخي لتولد التأويل، فنون السماع بألوانها، لتصور أولئك أن الحياة متنوعة المشارب، ومتعددة المصبات، وأنها ليست شكلاً مصمماً ومغلقاً منها.

ولم يكن معولهم في كل حكمهم الذي عم حضارتنا من جهة الموقف الرسمي الظاهر على الأقل، سوى عشرين مأثورة، وبعض تفسيرات للآية التي سنخرج عليها<sup>(1)</sup>، وانبنى موقف جذري ككل على مجموع نصوص، اختلف في صحتها، رواية ودراية، وانجذبت الآراء حول القول الذي تمحور على التحريم.

وفيما يلي، نشرع في سوق المبنى الذي غلب وطفح، في مستنداته وتخريجاتها.

### 01- آية اللهو، والتعميم الشنيع:

• لم يتضمن كل القرآن توجيهاً ظاهراً إزاء السماع ومساربه، سوى ما كان من نظمه هو، وأسلوب عرض فحواه، فكان دالاً على خلاف ما اتجه إليه القوم، وأقصى ما يوردونه هو قوله سبحانه عز وجل:

"وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(6)" سورة لقمان. الدارج بعد كل آية السبر عن معناها، ونظراً للغالب، فننظر في تفسير ابن كثير كواحد من أهم المراجع في تأويل القرآن، والمعنى الذي يذهب إليه يعتبر هو الأصل، قياساً إلى الجماعة التفسيرية الأخرى، اللهم من شاطره الرأي كالمدرسة المأثورية، وذلك لأنه يعتمد طريقة التفسير بالمأثور، وهي الأوثق حسب طريقتهم، رغم أن هناك طرائق أخرى معتبرة ومنافسة، لكننا كما أقررنا بحكم بالذي فرض على أنه الحق، فيقول الأخير في فهم هذه الآية العمدة، بإيراد مأثورات منقولة عن السابقين: قال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يزيد بن يونس، عن أبي صخر، عن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن أبي الصهباء البكري، أنه سمع عبد الله بن مسعود -وهو يُسأل عن هذه الآية: ( وَمِنَ النَّاسِ

مَنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ) - فقال عبد الله: الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات.

حدثنا عمرو بن علي، حدثنا صفوان بن عيسى، أخبرنا حُمَيْدُ الخراط، عن عمار، عن سعيد بن جبير، عن أبي الصهباء: أنه سأل ابن مسعود عن قول الله: ( وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ) في الحسن البصري: أنزلت هذه الآية: ( وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ) في الغناء والمزامير. وقال قتادة: قوله: ( وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ): والله لعله لا ينفق فيه مالا ولكن شراؤه استحبابه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضر على ما ينفق. وقيل: عنى بقوله: ( يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ): شراء المغنيات من الجوارى. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي: حدثنا وكيع، عن خلاد الصفار، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن زُحْر، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن، وأكل أثمانهن حرام، وفيهن أنزل الله عز وجل عَلَيَّ: ( وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ). وهكذا رواه الترمذي وابن جرير، من حديث عُبَيْدِ اللَّهِ بن زحور بنحوه، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب. وضعف علي بن يزيد المذكور، قلت: علي، وشيخه، والراوي عنه، كلهم ضعفاء. والله أعلم.

• أوردت ما ساقه ابن كثير (774هـ) في تفسيره (2) وقبله إلى ما يقارب الدلالة عينها، ساق ابن جرير الطبري (310هـ) نصوصاً حديثية تمحورت على الموقف عينه (3). والملاحظ في كل المعنى السابق؛ دورانه حول مسائل أساسية أربعة، هي: الغناء، والمزامير، والجوارى المغنيات، والباطل مقابل الحق؛ أي موارد الفنون الإيقاعية، من غناء، ولحن، ورقص، وكلمات... الخ، والملاحظ أن مرد الفهم يرجع إلى أشخاص مارسوا رأيهم إزاء الآية، ولم يكن من مستند قوي في تخريج المعنى، إلا عبد الله بن مسعود، أو قول بعض التابعين، اللهم بعض الأحاديث التي نرجئ التفصيل في مواردنا فيما يأتي.

• ويحتجون بآية غير منطبقة الدلالة على موضع السماع، لا في أصله كلون من التجاوب مع الجميل، إنشاء أو تعبيراً، ولا من ناحية تفاصيله في حاجته إلى الآلات والحركات وما أشبه، وجاءت الآية في قوله تعالى: " أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْبُوبُونَ، وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ، وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ " سورة النجم، الآيات 61/59. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الغناء بلغة حمير - يعني السمد - (4) وفيما أورده الغزالي ما يظهر أن توجهها فقهياً معيّنًا بنى رأيه على دلالة لغوية، أولت الكلمة بأخرى من لهجة عربية لإحدى القبائل، مع أن القرآن لا يقارب بمنطق المرادف، فلكل كلمة دلالتها الخاصة، والأوجب مقارنة الكلمة بمثيلاتها في كل القرآن، أو بموضعها في السياق المباشر أو العام، وهي مشكلة في الحالين، لأن الآية لم تكتفِ بالسمد، وإن جاوزت إلى الضحك واللعب، فهل هما محرمان؟ ولماذا يفرد ابن عباس تأويل الغناء، غاضاً الطرف عن العناصر الأخرى المسوقة في الآية.

## 02- الحديث النبوي والمنزع التجزيئي:

وبعد القرآن يورد المحرّمون أحاديث منسوبة إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، بينون عليها موقف الرفض لكل ما يتصل بالسماع وما يؤدي إليه، من ذلك ما ترويه عائشة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: إن الله حرم المغنية -وفي رواية القينة- وبيعها وثنمها وتعليمها والاستماع إليه"، رواه الترمذي، والطبراني في الأوسط. ما يستخلص من مضمون النص السابق، أنه غفل عن بيان علة التحريم، وهل هو متصل بطبيعة المغنية من حيث ما هي؟ أو مرتبط بالفعل ذاته؟ أم هو سد لذريعة الاتجار بالبشر؟ والصناعة الحديثية تبني حكمها غالباً على من قال، وتذهل عما قيل. وهذا ما أورث الذهنية الإسلامية إشكاليات مركبة لا تحل إلا بتخطي هذه المنهجية إلى أخرى تؤسس على قيم الفحوى ومضامينها واتجاهها ومقاصدها، ومع ذلك فإن مراجعة طريق الورد مهم، لأنه ليس الأساس، لذا فإن القارئ للحديث يفهم التحريم، لكن لا يعلم لماذا؟

وثمة حديث آخر من طريق محمد بن الحنفية عن أبيه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: إذا عملت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء... ومنها اتخذت القينات والمعازف. حديث أورده ابن حزم، ونشير إلى تخريجه أن تفنيده عنده، وقد انضاف إلى المعنى عنصر المعازف، وأيضاً لم يظهر السبب أو العلة، وغالب الشأن النبوي أنه يظهر الاعتبار الذي لأجله قرر ما قرر. وعن معاوية بن أبي سفيان، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه نهى عن تسع منها الغناء... وكل الأحاديث والمأثورات الأخرى تقع في هذا الاتجاه وجليها يصرح بالتحريم، ويؤكد على عدم اتخاذ الآلات والمعازف، ويشنع على المغنيات ومن يستجلبن للهو والتسلية، ويأخذ لذلك ثمنه، وكل النصوص تحكم من غير أن تبلغ عبرة واحدة، وهنا لا يمكن أن يتأسس موقف جذري من ظاهرة ابتكرتها الإنسانية، فقط لورود بعض النصوص، أو لأن البعض قد قال، ذهولاً عن نصوص أخرى أقوى وأمتن، ومن غير مراعاة لفعال كثيرين، قولاً أو فعلاً.

## 03- الاتجاه التحريمي ومصادرة الفهم/الحديث:

وفصل الاتجاه التحريمي في اعتبارات النهي عن السماع، وقسمه إلى سماع مباح وآخر محرم ومرفوض، ومن أولئك تلميذ ابن تيمية الحراني، ابن قيم الجوزية (751هـ)، حيث أورد موقف المدرسة النصوصية، وقعد لمنطقها بتفصيلات وتحليلات معتبرة، تفصح عن رؤيتهم ومستندهم في رد السماع، المعروف بالموسيقى وما يرتبط بها، يقول: "... وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم... هو سماع الآيات، لا سماع الأبيات، وسماع القرآن، لا سماع مزامير الشيطان، وسماع كلام رب الأرض والسماء، لا سماع قصائد الشعراء، وسماع المرشد، لا سماع القصائد، وسماع الأنبياء والمرسلين، لا سماع المغنين والمطربين" (5) نلاحظ أنه عمد إلى تحريم كلمات السماع بتعمية معمة، وتعدى بالحكم إلى الآلات والأدوات، فالمؤدّين، من غير تمييز ولا تدقيق، المهم كل من يتعدى أداؤه المنقول المأثور وفق الفهم الظاهري الخارجي، يحشر في

بوتقة المحرم، والغريب أن العلة مسكوت عنها، والأغرب ما مصير شعراء النبي المؤيدين بالوحي؟ هل قرض الأنبياء الشعر وقالوه، أم لا؟ هل سار الركبان والحدادة ينشدون، أم هل حفر حفار الخندق، وهم صامتون؟ لماذا كل هذا التحامل على ما يقابل مسميات بعينها، هل طغى السجع على المعنى؟

ويستدرك ابن قيم؛ ليظهر لا تمييزه بين سماع وآخر - رغم محاولاته لذلك، إلا أنه سرعان ما يلتفت على التمييز، وينتهي إلى مطابقة حديدية بين كل أشكاله - بل ليعمق الرفض ويثبتته، حال افتراض موقف حكيم إزاء ما يمارس باسم السماع. ويسأل هل يجد هؤلاء مرادهم في غير بيان القرآن ومحكمه؟ يقول: ونناشدهم بالذي أنزل القرآن... هل وجدوا ذلك - أو شيئاً منه- في الدف والمزمار؟ ونغمة الشادن ومطربات الألحان؟ والغناء المشتمل على تهيج الحب المطلق الذي يشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب العلم والعرفان، ومحب الأموال والأثمان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الصليان... ويا الله العجب أي إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقعات...<sup>(6)</sup>

لو عمدنا إلى قراءة معرفية تستكنه البعد القيمي المثوي في طيات النص السالف، نجد اهتزازاً شديداً ينم عن حنق وغيظ، من كل ما له صلة بالأصوات والحركات والأوزان والألحان، وإلا هل كل حب بالضرورة قبل حب الله؟ أم هو في طوله ومنبثقه؟ هل كل صوت جميل مشغلة للعبد عما له وصل بحياته العامة وانتماؤه؟ لماذا الخلط بين الآية والبيت، لأنهما من شأنية واحدة عنده؟ أم لم يدرك أنه ولا واحد يخلط بينهما، ويجعل قول الله سبحانه، بيت الشاعر، ويحول أحكام الترتيل والتجويد، إلى أوزان الألحان ومقاماتها؟ فليس خلف ما قيل غير رفض كل مختلف عن أسلوب الشكلايين وما ألقوه من طراز حياة لا يقوى على تحمل الجماليات الحسية التي هي في بعد ما، امتداد للجماليات المعنوية ومظهر لها، كما سيأتي.

ويروي نصاً منسوجاً من مخيال ميثولوجي مبتلى ببيئة متحجرة، ناشئ من ثقافة يابسة ليست فيها ليونة الجمال ولا رفته، يورده من نص عجيب أورده الطبراني (360هـ) في معجمه، يقول: إن الشيطان قال يا رب، اجعل لي قرآناً. قال: قرآنك الشعر، قال اجعل لي كتاباً، قال كتابك الوشم، قال اجعل لي مؤذناً، قال مؤذذك المزمار، قال اجعل لي بيتاً، قال بيتك الحمام، قال اجعل لي مصائد، قال مصائدك النساء، قال اجعل لي طعاماً، قال طعامك ما لم يذكر عليه اسمي...<sup>(7)</sup>

غرابية ما أورده، تبرز في المضاهاة التي يتضمنها النص، بين الله سبحانه والشيطان، وفي الأخير المستهدف هو ما يتصل بالفن ومصادره، من غير أن يعير بالألمافرة عجيبة يتضمنها الفحوى، إذ جعل الشيطان إله يطلب كتاباً، وقرآناً، واعترف الله سبحانه بذلك ومكنه منه، ليخلص إلى المزمار وما يلحنه من كلمات الشعر فقط، -/شعر... هل في المنطق العقائدي التوحيدي ما يؤيد المخالفات الظاهرة لأصل الدين ذاته،

وهنا نستنتج مبلغ المجازفة التنظيرية التي يمارسها هؤلاء في لي عنق الحقائق ليسايروا حكمهم، ويضيقوا على الناس واسعاً.

ومن المناقشات الأخرى التي رد بها على القائلين بحلية السماع، بل بضرورته الوجودية والطبيعية، ما كان ذا صلة بالاستدلال النقلي، وبعض المحاولات التدلالية العقلية، وغالبًا بما يتماشى والطريقة السلفية في الفهم والتأصيل، فيجعل كل الأدلة حيدة عن الصواب، فلو كان الصوت الغنائي وما يساوقه من موسيقى، جالبًا للذة، لا يعني تمامًا أن ذلك مقبول، أليس الزنى جالبًا للذة عارمة، لكنها محرمة. وفي المثال المختار، تعريض شديد، فما صلة الغناء الجميل بفعل محرم في أغلب الشرائع؟ ونسأل: أرأيت لو كان تواصلًا جنسيًا في إطار علاقة زواج، أنكون اللذة هنا دالة عليها هناك؟ وقرن صوت المغنين الشجي، إلى صوت الحمير، وهو أنكر الأصوات، وقال ليس لأن الصوت عذب، يفيد أن كل مسموع كذلك. واعجبًا ما جهة الارتباط بين حمار وإنسان، وبين مطرب وبهيمة! التعريض مستمر كما نتمنى أن يلاحظ القارئ الكريم. ثم إن نشوة السماع محرمة لقربها من غمرة السكر وأحواله، فكلما أمعن المستمع وتمايل، جلب عليه ذلك حال السكرين، وجعله في مرتبتهم، وهنا نزيد الأمر بيانًا، هل على وجه الأرض من ساوى بين لذة الخمر ولذة الغناء؟ وطبيعيًا هل هما من سنخية واحدة، وماهية موحدة؟ أم أن الطبيعة أظهرت أنهما ليسا كما ذهب إليه.

ومن أهم المناقشات في تقديري التي انتبه إليها ابن القيم، وهي التي سأبني عليها التأسيس الآتي لوجوب السماع، لا فقط لحليته العامة، كونه تساءل كما يلي: "وأما قولكم لم يقم دليل على تحريم السماع. فيقال لك: أي السماعات تعني؟ وأي المسموعات تريد؟ فالسماعات والمسموعات: منها المحرم، والمكروه، والمباح، والواجب، والمستحب، فعين نوعًا من الكلام يقع فيه نفيًا وإثباتًا.<sup>(8)</sup> جدوى النص السابق، في أنه وضعنا من الوجهة المنطقية في جهات الحكم الأصولي الذي يقيم عليه العلماء فتاويهم، وما يلقون به من أحكام للناس. فحصر الأمر في الكلام فقط من السماع وجعل منه ما ينزل على التصنيف السابق. أما الآلات والحركات والأصوات المقرونة بها، فهي محرمة، وكل كلام يخرج عن مدح النبي وهجاء لأعدائه يدخل فيما يرد. وجعل كل الغناء من قبيل الكلام الشيطاني الذي لم يسمعه النبي ولا أصحابه، ولبيت شعري ما كلام الشيطان إلا آيات تتلى في كتاب الله، وتنعبد بها في الصلاة، ألنطق الشيطان بها، تحرم الصلاة بها؟ ثم من قال أن كل الغناء كلام فاحش، وهذا ما سنظهره في المستوى الثاني من التحليل، حال ننتقل إلى إثبات الجدوى الحضارية للسماع، والعمل على جعل الإسلام ينطق من جديد ويتكلم، ويلقي إلى العالم بمدونته الجمالية بكل جوانبها، فيراه الناس بهيًّا، فيرغبون فيه، ولا يظهر لهم قبيحًا سمجًا فيلفظونه ويمجونه، وكم من رافض له، لما بدا عليه من صور رثة كئيبة.

قد يذهب البعض إلى أن هذا الرأي المضيق على جماليات السماع، إنما هو قديم، ولم يعد ذا بال الآن، نحيله قرار بيان من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بشأن تحريم الغناء والموسيقى يحمل الرقم / 2/277



التاريخ / 1421/1/11 هـ، ومن بعض مضامينه نستوحي الموقف العام الذي يشكل غالب المزاج المنظور إليه كمتابق للحق من حيث ما هو، قالت لجنة الإفتاء في المملكة العربية السعودية، بعد مجموعة من الاستدلالات استنتجت فيها فقط أن تغني النساء لبعضهن من غير آلات ما عدا الدف، أن "... كل صوت من أصوات الملاهي، فهو داخل في ذلك كالمزمار والربابة والعود والكمان وما أشبه ذلك، وهذا كله يصد عن سبيل الله ويسبب الضلال والإضلال.<sup>(9)</sup> نلاحظ الرأي عينه، اللهم بعض الاستثناءات غير الدالة على قبول مبدأ السماع ذاته، وإنما عقدت له شروط تضعه في إطار الحظر والمنع، ما يسوق المعنى دائماً في مساق التحريم والمنع، فتكون الجماليات السماعية، مما يحول دون الصلة الإيجابية مع العالم ومع موجدته، وفي تقدير، هذا يضعنا في جو الصمت الكئيب، اللهم ما كان تأملاً في خلق الله، تماشياً مع أشكال المخلوقات ونماذجها، وأنماط عملها، وهو في النهاية نوع من الجمالية الجالبة للرغبة، أو ما اصطلح عليه علماء الجمال وفلاسفة الفن بالجلال الممزوج بالجمال.



### الهوامش:

- 1- محمد عمارة: الإسلام والفنون الجميلة، القاهرة: دار الشروق، ط2، 02، 2005، ص 44، وما بعدها.
- 2- ابن كثير: تفسير ابن كثير، مجمع الملك فهد للقرآن الكريم، المجلد الخامس، ص 492، تفسير سورة لقمان.
- 3- ابن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مجمع الملك فهد للقرآن الكريم، المجلد 21، ص 411
- 4- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، القاهرة، المكتب الثقافي، ط01، 01، 2003، ج02، ص 348
- 5- ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، حققه عبد الغني محمد علي الفاسي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط01، 01، 2004، ج 01، ص 361
- 6- نفسه، ص 362، وما بعدها.
- 7- نفسه، ص 362
- 8- نفسه، ص 367، وما بعدها.
- 9- اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء:  
 - الرئيس / عبدالعزيز بن عبدالله بن محمد آل الشيخ  
 - عضو / عبدالله بن عبدالرحمن الغديان  
 - عضو / بكر بن عبدالله أبو زيد  
 - عضو / صالح بن فوزان الفوزان.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun\_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com